الامامة في ضوء العقل

<"xml encoding="UTF-8?>

تنسحب البراهين و الأدلّة العقلية التي تثبت وجوب النبوّة علي الله عزوجل، علي الإمامة في غياب الأنبياء والرسل.
فلابد من وجود فرد معصوم اختاه الله و اصطفاه لعباده لإقامة الدين وتطبيق الشريعة في حياة الناس. ومن هنا فإن بحث مسألة النبوّة العامة أمر ضروري للتمهيد من أجل بحث الإمامة في ضوء العقل.

وقبل الخوض في البحث أجد من اللازم إثارة بعض النقاط كمقدّمة:

الأولى

أثبت العلوم العقلية أن الإنسان يتألف من جسد و روح.وهو من ناحية الجسد ينتمي الي عالم المادّة التي هي عرضة للتغيّر و التبدل، و هو من ناحية الروح ينتمي الي عالم المجرّدات، و هو في كلّ هذين البعدين كائن متوحّد. وبتعبير أكثر دقّة: ان الإنسان في منشأه ينتمي الي عالمين سفلي و علوي فالسفلي ما ارتبط بالجسد و حاجاته و غرائزه، و العلوي وثيق الصلة باعمال الروح.

ولأن روح الإنسان متعلّقة بالمادّة، و هي ليست متجرّدة، تماما، فهي تنطوي على قابلية التكامل و السمو، و الروح التي هي واحدة لدي الإنسان في طفولته تتفاوت مع روح الحكيم في منزلتها و درجة تكاملها.

فالوجود الإنساني يبدأ من نطفة تفتقر الى الإدراك و الشعور ثم تتحد داخل الرحم لتبدأ حياة جديدة....حياة جسدية تنتمي الي حياة الأُم و تكون جزءاً من تكوينها البدني.

غير أن هذا الكائن المتناهي في الصغر يندج في مسيرة التكامل الي ان تصبح له حياة حيوانية في إطار الحواس الخمس، ثم يتكامل شيئاً فشيئاً ً حتى يرقي الي الحياة الإنسانية التي تتسامي علي حياة الحيوانات و النباتات، و

يرتفع عن عالم المادّيات و هو في حركة دائبة مستمرة.

على ان روح الإنسان و في كلّ مراحل تكاملها لا تعدو كونها حقيقة تتّجه لتحقيق وجودها. وهذا لا يعني أن نتصور بّقاءها على أصلها و جوهرها، و ان الكمال أمرطارئ عليها، بل إن معنى التكامل هو نمو جوهري للذات و حقيقة الوجود باتجاه الدرجة الإسمى. وإذن فإنّ طبيعة الخلق الإنساني انّما تنطوي على قابلية التكامل من درجة المادة الفقيرة الي مراحل الكمال حيث يتغيّر الجوهر الذاتي شيئاً فشيئاً ليرتقي في عوالم الصفاء والكمال.

الثانية

ان الانسان مفطور على التكامل، مزوّد بقابلية ذلك، و عليه ينبغي ان يكون ذلک ممكناً و ميسراً، و إلّا الأمر عبثاً، و هو لا ينسجم مع حكمة الباري عزوجل. وكما انّكلّ موجود مادّي يتحرك نحو كماله الممكن الذي أودعه الله في خلقه، فإن الإنسان هو الآخر ليس مستثنياً عن هذه القاعدة العامة، و هو ليس محروماً من هذه النعمة الكبرى، بل إن حكمة الله سبحانه تقتضي ان تيسر للإنسان هذه الغاية.

الثالثة

ان الإنسان يتألف من جسد و روح، هو بهذا يعيش حياتين: احداهما دنيوية ترتبط بالجسد و غرائزه و حاجاته، و اخري روحية و معنوية تتعلّق بنفسه، ولكلّ منهما أسباب للسعادة و عوامل للشقاء.

وهو شاء أم أبي يحيا هذين المستويين من الحياة فقد يستغرق في حياته المادية غافلاً عن نفسه و روحه. هو إذن يتحرّک نحو السعادة و الكمال الإنساني أو ينحدرفي هاوية الشقاء والعذاب.

فالأفكار الطاهرة و الأخلاق الحميدة و الأعمال الصالحة كلّها تنبع من عالم الوجود و هي عوامل الرقي و الكمال والسعادة. في مقابل هذا، العقائد الباطلة والأخلاق السيئة التي تتناقض مع ناموس الوجود و تدفع بالإنسان عن جادّة السراط الي أودية الضياع و الشقاء.

فالإنسان الذي يستقيم طريقه انما يتحرک باتجاه التكامل حيث تنموا ذاته، و تنصقل نفسه، و يتكامل جوهرة، ويرتقي سلّم الكمال الروحي و الأخلاقي، بعد أن يقهر غرائزه الحيوانية المتحفزة في أعماقه.

الرابعة

ان العلاقة الوثيقة بين الروح و الجسد تنعكس على مدي علاقة الحياتين الدنيوية و الأخروية للإنسان فتكسبها ذات الإرتباط الوثيق.

فالنشاط الحيوي للجسد و كلّ الأفعال البدنية لها تأثيراتها في روح الأنسان، و كذا فإن التقلبات النفسية و التغيرات الروحية لها آثارها في حركات الإنسان، و الاستغراق في الآثام و المعاصي يلوّث النفس الإنسانية و يجعلها في جنوح دائم للإنحراف، و على العكس تماماً فإنّ الاستمرار على أعمال الخير والإحسان يصقل النفس و يزيدها نقاءً و صفاءً و تجعل قلب الإنسان مضيئاً و تنمو في أعماقه ملكات الصلاح و الخير.

ومن الممكن أن يصل الإنسان درجة يسمو فيها فلا يري شيئاً سوي الصفاء والخير و الإحسان، كما أن المحتمل أن يتردّى الإنسان إثر ارتكابه الآثام والذنوب في هاوية السقوط فلا يعرف شيئاً غير الشقاء والشرور.

فكلّ التغيرات النفسية و التبدّلات الروحية تنعكس في أعمال جسدية تنسجم مع طبيعتها و تتماشي مع سيخيتها.

فالفعل الإنساني ما هو إلّا انعكاس للذات كما المرآة تعكس ما يقابلها تماما.

ومن هنا لا يمكن الفصل بين الحياتين الدنيوية و الآخروية، حتي يمكن حساب كلّ واحدة بمنأيّ عن الآخرى.

فبدون الأعمال الصالحة و مواقف الخير لا يمكن أن يرتقي الإنسان الى درجة التكامل الروحي، و بدون إصلاح النفس و تزكيتها لا يمكن أن ينهض الإنسان بأعمال الخير والإحسان.

ومخطئ من يقول إنّه لا جدوي من المداومة على أعمال الخير لأن الأصل هو إصلاح النفس و طهارة القلب، فالقميص قد يصنع القديس إلي حدّ ما.

الخامسة

هناك من يتجاهل الجانب الهام في الإنسان؛ الجانب الذي يعدّ الأساس في شخصيته، فلا يري للكائن البشري سوى حياة تنحصر في إطار ضيّق يدور بين الأكل و النوم، متجاهلاً روحه العظيمة بكلّ ما يزخر فيها من مكنونات عميقة.

فمثلاً يقول أحدهم: إن الإنسان انما وجد ليعيش فيهيئ ما يأكل، و يوفّر ما يلبس، و يحافظ على حياته، و يقوم بأنشطته الاجتماعية، و اذن ينبغي أن يكون الذين في هذا الإطار، فلا يتعدّي بدفع الإنسان الي التفكير و التعمّق في إسرار الكون، و بالتالي إلهائه عن الحياة و خسارتها1.

ولا يحتاج هذا الرأي إلي تعليق، فهو يطيع بكرامة الإنسان و ينزله من عليائه الشامخ إلي حضيض الحيوانية التي لا تعرف شيئاً غير غرائزها و ميولها ورغباتها.

غير ان العلم و الفلسفة ترفض مثل هذه الرؤية و تجعل للإنسان مرتبة سامية ومنزلة رفيعة.

ولقد أثبت العلم و الفلسفة أن شخصية الإنسان إنما تنهض على الروح و إنّها والإطار العام الذي تتجسد من خلاله انسانية الإنسان.

وعلي هذا فإن سرّ الخلق و غائية الوجود الإنساني هي في التكامل الروحي والمعنوي، و إنّ إغفال هذا الجانب الهام في الكائن البشري هو مصادرة تعسّفية لجوهر الإنسان وكيانه العام ؛ ذلک أنّ علّة الخلق تكمن في التكامل الروحي، و بدون ذلک يتعذّر على الإنسان و صوله الي الغاية المنشودة.

السادسة

ان الإنسان و بفطرته يتطلّع إلي الكمال، و يبحث عن الحقيقة، و يسعي من أجل الحصول عليها، بل إن أفعاله و حركاته تدور حول نيل الكمال لوجوده، فالكلّ يتحرّک في هذا الاتجاه، و ما يحصل من تخبط انما ينشأً عن الخطأ في تشخيص الكمال الحقيقي، فقد يظن متوهماً ان كماله يكمن في إشياء لاتمت إلي الحقّيقة بشي ء فهو ينطلق في خياله خاطئا.

فهناك من يري كماله في المظاهر البراقة من الحياة، و هناك من يراه في ما يملكه من مساحات شاسعة من الأرض و آخر يظنّه في الجاه و المنصب و النفوذ. وهناك من يتهالك على إشباع غرائزه فيندفع في هذا الطريق ملبيّاً كلّ رغبة تشتغل في أعماقه و بأي ثمن.

وهكذا نري تخبطاً في مسار الإنسان و انحرافه عن جادة الطريق.... الطريق الذي يؤدّي سعادتة، فإذا به يسقط في هاوية الشقاء دون وعي.

السابعة

ان الإنسان لا ينطوي على غريزة اجتماعية أو هو ليس اجتماعياً بالذات، ولكنه يميل إلي الحياة الاجتماعية و يخشي حياة الوحدة و العزلة، مقتنعاً بالحياة مع الآخرين.

وهنا سؤال عن طبيعة البواعث التي أدّت الى أن يحيا الإنسان هذا الشكل من الحياة؟

فهل ان ذلک جاء نتيجة لميله للإفادة و الاستفادة من أبناء جنسه أم لأنّه يخاف الحيوانات المفترسة، أم شعوره

بالعجز عن الحياة بمفرد و حاجته للآخرين في توفير متطلبات العيش، أو لإنّه يريد تسخيرالآخرين لمصلحته ؟

وبشكل أوضح هل يهدف الإنسان وراء الحياة الاجتماعية مصلحته الخاصة أم التعاون و تقديم العون؟

هناك أجوبة عديدة قدمها علماء الانثر بولجيا و تاريخ الأديان و علم النفس، ولكلّ رؤيته و تفسيره في تحليل هذه الظاهرة.

غير أنّه يمكن القول أنّ الحق في جانب من ينادي بأنّ الإنسان يهدف من خلال حياته الاجتماعية الاستفادة من عون الآخرين في تأمين متطلبات عيشه.

ولتسليط الضوء أكثر ينبغي القول اننا وبالرغم من غيابنا عن تلك الحقبة من الزمن حيث شهدت الأرض أول التجمعات الإنسانية حتي يمكننا اكتشاف ومعرفة بواعث هذه التجمعات و الظروف التي أدّت الي ذلك، و لكن دراسة الإنسان في العصر الحاضر والإمام بميوله و غرائزه و طريقة تفكيره و الغوص في أعماقه ستدلّنا بلا شك علي البدايات الأولي حيث فكّر الإنسان في أن يعيش مع أبناء جنسه في تجمّعات محدودة.

لقد وجد الإنسان نفسه جائعاً فراح يبحث عمّا يسدّ رمقه ثم شعر بالظلماً فراح يبحث عن الماء، و لعلّ هذا الدافع هو أوّل اكتشاف للإنسان و ارتباطه الوثيق بما حوله من نباتات و أنهار، و لعلّه لجأ الي الأغوار لدفع غوائل البرد أو محتمياً من الحرّ أو امطر، و هكذا بدأ يكتشف العالم من حوله شيئاً فشيئا.

ثم راح يفكّر بتسخير الحيوانات و الاستفادة من لحومها و جلودها و في تنقله من مكان إلي آخر.

وبسبب وجود الغريزة الجنسية و طغيإنها راح الرجل يبحث عن الانثي لإطفاء تلك الشهوة المتأججة في أعماقه.

وهكذا استولي الرجل علي امرأة و احدة أو أكثر من أجل إشباع غريزته الجنسية، و قد اضطر و من أجل الاحنفاظ بالانثي الي الدفاع عنها و توفيرما تحتاجه من غداء؛ و من هنا بدأت أولي أشكال التعاون بين أفراد النوع البشري.

فقد نتج عن الحياة المشتركة بين شخصين ظهور الأُسرة التي تتألف من الأب و الام و حضانة ضغارهما حتي سنّ معينه.

وأعقب ظهور الأُسرة تبلور الاجتماع القلبي، ثم ظهور التجمّع القروي إلي ولادة المدن إلي التجمع علي مستوي أكبر في إطار الدولة.

وفي كلّ مراحل التطور الإجتماعي هذه تبرز المصلحة الشخصية و محأولة تحقيق الفرد لذاته كباعث وحيد وراء ذلك.

يقول هوبز: يهدف البشر إلى تسخير بعضهم بعضا2.

ولأن غريزة الأنا غريزة ضارة الجذور في كلّ أفراد الجنس البشري و هي التي تحرك الإنسان و تحدد سلوكه و مواقفه، فإن هذا يعني حدوث الفوضي وبالتالي تعذّر العيش، فقد وجد الإنسان نفسه مضطراً للحدّ من طغيان

الإنانية، ثم التضحية ببعض مصالحه من أجل استمرار التشكيل الإجتماعي للحياة.وبهذا اختار الإنسان حياة التعاون و المصالح المتبادلة مع أفراد نوعه، و هكذا اضطر الإنسان إلي كبح النزعات الفردية أو التخفيف من حدّتها من أجل استمرار النظام الإجتماعي الذي يحقق مطامح الأفراد جميعا.

الثامنة

ان من نتائج الحياة الاجتماعية الحتمية بروز التصادم في رغبات وطموحات الأفراد؛ ذلك أن كلّ فرد يسعي لتحقيق ذاته ولو علي حساب الآخرين، تحركه في ذلك عريزة الأنا، و هو بهذا يتحرّک من أجل تحقيق أكبر قدر من مصالحه الشخصية، و من هنا فهو يحأول دائماً تسخير الآخرين واستغلال جهودهم و استثمار نشاطهم لصالحه.هكذا تصطدم الرغبات و تتزاحم الإدارات.

وفي هذا المأزق اكتشف العقل البشري-ولكي يجتاز هذه المحنة - اكتشف القانون الاجتماعي الذي يحدّد حقوق الإفراد و واجباتهم تجاه بعضهم البعض، منعاً للظلم و العدوان أو سيادة قانون الغابة. ولعلّ الإنسان اكتشف أوّل ما اكتشف في حياته الاجتماعية ضرورة القانون و الشريعة في تنظيم الحياة المشتركة في بداياتها الأولي3.

---

1. مونتسيكو - روح القوانين. عن النسخة الفارسية ط5، ص678.
2. المصدر السابق، ص88.
3. من كتاب دراسة عامة في الامامة.